قضية الأطفال

الأستاذ زكى المهندس الأستاذ بدار العلوم

٣

أرأيت لو أن امرأة تعجلت النمو فى رضيعها فناولته كسرة من خبز أو ألقمته قطعة من لحم أ كان ذلك ينيلها غايتها أم يعكس عليها غرضها فتقتل الطفل بيدها قتلا ؟ ثم أى خطل ترى فى منطق هذه الأم وأى خبل فى عقلها لو اعتذرت عما فعلت بأنها تعلم أن الطفل لا بد بالغ يوما ما تلك السن التى يلتقم فيها اللحم ويزدرد الخبز وأنها ترى من الخير أن تبادر منذ الآن الى تدريب معدته على الهضم فتعدّه بذلك لحياته المقبلة ! !

غير أن الأمهات — من حسن الحظ — لا يصنعن مثل هذا بأبنائهن فقد ألهمتهنّ الغريزة وهدتهن التجربة الى أن لدور الطفولة خصائصه ومميزاته وغذاءه وإن للطبيعة سَنَنًا لا يسعهن مخالفته وأنهن اذا حاولن أن يتعدين حدود الطبيعة فى ذلك فقد ظلمن الأطفال وجنين عليهم جناية موبقة .

يدرك الأمهات كل هذا ويدركن فوق هذا انهن قد كُفين مؤونة التفكير فى تغذية أطفالهن بفضل ما ركب الله فى صدورهن من هذا النظام العجيب الذى يكفل للطفل غذاءه ويُدرّ عليه رزقه وان كثيرا من الأمهات ليشعرن كذلك بأنهن إذ يُلقمن الأطفال أثداءهن لا يجرّعنهم فقط لبنا سائغا شرابه وأنما يجرّعنهم معه عطفا وحنانا ورحمة .

ورجال التعليم لا يكادون يختلفون عن الأمهات فى كل ما يتصل

بالنمو الجسمى للأحداث فهم يدركون إدراكا واضحا جليا ان للطبيعة نواميسها وحدودها فى ذلك وانهم عاجزون — مهما حاولوا — عن أن يسبغوا على الطفل سنوات من أعمارهم يزداد بها طوله وينبت معها عذاره أو يخط شاربه لأن ذلك مما تأباه الطبيعة عليهم ويحجزه الزمن دونهم ، وهم من أجل ذلك يقفون من جسم الطفل موقف البستانى من غرسه يهيء له التربة الصالحة ويمده بالغذاء الملائم ويمنحه من عنايته وحسن تعهده ما يكفل له النماء والقوة ويمنع عنه الآفات والعلل ثم يظل يرقبه بعين صابرة ونفس مطمئنة فاذا هو زهر تفتحت أكمامه وانتشر فى الفضاء عبيره أو شجر بسقت فروعه والتفت غصونه وأينع ثمره وتدلى جناه

كذلك يقف رجال التعليم من الطفل فى تربيته الجسمية يوفرون له من الوسائل ما يقوى عضله ويحكم فتله ويرهف من حواسه ثم يرقبونه بعد ذلك صابرين مصابرين حتى يخرج من دور الطفولة سليما قويا وهم يعلمون حق العلم بأنه ليس فى طاقتهم أن يثبوا به وثبة زمنية تبلغه سن الرشد قبل أوانه أو تسرع به الى الشباب فى غير إبانه ولكن ما لرجال التعليم يضطرب منطقهم وتختل أقيستهم وموازينهم كلما تصدوا للبحث فى تكوين عقول الأطفال أو فى تهذيب أخلاقهم ؟ ما لهم لا يقفون من عقل الطفل وخلقه موقفهم من جسمه ؟ ما لهم كلما عرضت مسألة المناهج حرصوا على أن يدفعوا بالطفل سراعا الى الشباب والتمسوا فى جسمه الصغير وعوده اللدن عقل الرجل وحكمة الرجل ؟ إنهم لا يكادون يجهلون أن للطبيعة قانونا لا يشذ ولا يتغير وأن هذا القانون منسجم متسق عام يخضع له المرء بمظهريه المادى والنفسى كما تخضع له الكائنات الحية بأسرها ان لم يكن الكون كله بجميع ظواهره وأحداثه فليت شعرى ماذا يحملنا على أن نفرق بين نمو الأطفال الجسمى ونموهم

النفسى ولماذا يكون موقفنا من الأول موقفا طبيعيا محدودا وموقفنا من الثانى موقفا مضطربا بعيدا كل البعد عن حدود الطبيعة ونواميسها ؟

لقد مضى زمن كان الناشئ فيه لا يغادر مدرسته الابتدائية إلا بعد أن يكون قد قطع شوطا بعيدا فى مرحلة الشباب فلم يكن هناك بأس من أن نأخذه ببعض تجارب الرجال ونطلب إليه أدب الرجال ولكن أحداث الزمن وتطوراته قد غيرت كل شىء فأصبحنا نرى بين أيدينا طفولة خالصة ونعالج فى مدارسنا الابتدائية طفولة صريحة ، وها نحن أولاء نرى لجان الامتحان فى كل عام تموج بتلك الجسوم الصغيرة التى لم تكد تشب بعد عن الطوق ، أصبحنا نراهم ونغتبط بمرآهم ونلمح فى صفحات وجوههم تلك البراءة والطهارة والسذاجة التى هى من أظهر أمارات الطفولة ، حقا لقد نقص متوسط أسنان التلاميذ فى السنوات الأخيرة نقصاً ظاهرا حتى أصبح التلميذ يتم مرحلته الابتدائية قبل أن يُوفى على الثانية عشرة من عمره .

ولقد كان من حق هذه الطفولة الخالصة على رجال التعليم عامة وعلى واضعى المناهج بصفة خاصة أن يُعْتَرَف لها بحقوقها ومطالبها وأن تحقق لها غاياتها ومآربها ولكننا نأبى أن نعترف بأن لهذه الطفولة حقوقا أو مآرب بل ضقنا بها وضاقت بنا وحرصنا على أن ندفع بها إلى الشباب قُدُما فكان مثلنا مثل تلك الأم التى تلقم رضيعها الخبز واللحم قبل أن تهيئه الطبيعة لذلك إن صح أن يكون لمثل هذه الأم وجود بين الأمهات.

أقول إن واضعى المناهج يأبون الاعتراف بأن للطفولة غذاءها النفسى كما لها غذاؤها الجسمى وهم لذلك كلما تصدوا لتعليم الأطفال أو تأديبهم لمحوا شبح « المستقبل » جاثما بين أيديهم بصورته الرهيبة الغامضة فآثروا أن يبيعوا حاضر الطفل بمقبله وأن يعكسوا أولاه على أخراه

ويضحوا بعاجله فى سبيل آجله فظلموا الطفولة والشباب معاً .

لقد أنفقنا كثيراً من الجهد والوقت فى تعديل المنهاج الابتدائى وتغييره فى السنوات العشر الأخيرة . ولكن يجب أن نعترف صراحة وبمسمع من كل من يعنيهم الأمر بأن المنهاج الحالى عامة والشطر الأخير منه خاصة لا يزال بعيدا كل البعد عن أن يحقق للطفولة ماتطمح إليه من غايات ومقاصد وأن المنصفين من رجال التعليم ما زالوا يشعرون بتلك الحرب الناشبة بين الأحداث ومافرض عليهم دراسته من حقائق وتجارب هى أدنى إلى عقول الشباب منها إلى عقولهم نعم لقد آن للقائمين بأمر الأطفال والمشرفين على تعليمهم أن يذكروا دائما أن الطفولة يجب أن تظل طفولة خالصة فى عقلها وخلقها كما هى طفولة خالصة فى جسمها وطبيعتها وأن يذكروا فوق هذا أننا إذا أعطينا هذه الطفولة حقها ووفينا لها بمطالبها وحققنا لها غاياتها ومآربها فقد أنصفناها وخرجنا بها سليمة قوية نشيطة ثم استطعنا أن نقيم على دعائمها شبابا معافىً فياضا منتجا .

كم وددت لو فسح لى فى أن أتناول فى شىء من الاسهاب منهاج التعليم الابتدائى بابا بابا لأفصل غثه من سمينه وأميز بين طيبه وخبيثه فقد ازدحمت المثل بين يدىّ حتى ما أكاد أعرف ما آخذ منها وما أدَع ولكن صديقى رئيس تحرير الصحيفة يأبى علىّ الاطالة ولا يسعنى إلا النزول على حكمه فانى أحبه وأخشاه وأخوف ما أخاف منه قلمه الأحمر الذى كلما اضطرب بين أصابعه اضطربت معه قلوب الكاتبين ومن أجل ذلك يجب — على الرغم منى — أن أمسك عن ضرب المَثل وأستمر فى تسجيل هذه الملاحظات العامة

إن واضعى المناهج فى التعليم الابتدائى يبررون عملهم بحجة منطقية خلابة خادعة فهم يقولون : « إن غاية التربية إعداد النشء للمستقبل »

ونحن نقصد فى مناهجنا إلى تربية النشء فمن الطبيعى إذن أن نزوده بما يمكن أن ينفعه فى حياته المقبلة ، هذا ما يقوله واضعو المناهج وهو — كما ترى — قياس منطق لا يسع أى عقل من أول وهلة إلا أن يسلم به وينزل على حكمه ولكن قليلا من البحث والتروى يشعرك بأن هناك خطلا فى بعض نواحيه . أما أن الغاية القصوى للتربية إعداد النشء للمستقبل فهو حق لا مرية فيه ولم يُجمع المربون على شىء — فيما أعلم — إجماعهم على هذه الحقيقة فالتربية يجب أن تكون بحيث تستطيع أن تصوغ للأمة شباباً قوياً يحسن القيام بواجبه نحو نفسه ووطنه ونحو الانسانية عامة وأما أننا نقصد فى مناهجنا ونظمنا التعليمية إلى تربية النشء فهو أيضاً من البداهة بحيث لا يحتاج إلى نقاش أو جدل فلأمر ما أنشئت المدارس وبذلت الجهود وضحى الآباء بكل مرتخص وغالٍ مما ملكت أيديهم

أما أن تكون النتيجة الطبيعية لهذا أن نزود النشء بكل ما يمكن أن ينفعه فى مقبل أيامه فهو الذى يحتاج إلى شىء من البحث والتدقيق فكيف نستطيع أن نعد الطفل للمستقبل ؟ هذه هى النقطة التى أفضت وما زالت تفضى بنا إلى كثير من الحيرة والارتباك عند وضع مناهجنا . إن كثيراً من المشتغلين بالتعليم يظنون أن « إعداد النشء للمستقبل » ليس أكثر من تزويده بتلك المعلومات المختلفة والتجارب المتنوعة التى إذا لم تتصل بحياته اليوم فسيكون لها قيمتها وأثرها فى حياته غدا ، وهم من أجل هذا لا يرون بأساً بل قد يرون من الواجب عليهم — فى كثير من الأحيان — أن يكرهوا النشء على علاج مسائل متعددة وتجارب شتى طمعاً فى أن تكون ذخيرته وعدته فى مقبل أيامه واهمين أن عقول الأحداث « خزانات » تكدس فيها تجارب المستقبل تكديساً

كنت أتحدث إلى رجل نابه من رجال التعليم فى بعض مسائل فرض

على تلاميذ السنة الثالثة دراستها على مافيها من صعوبة وعسر فلم يسعه إلا الاعتراف بأنها بعيدة المنال على مدارك الأحداث ولكنه ختم حديثه بقوله :

« لا بأس فهم إذا لم يفهموها اليوم فسيكون لها شأنها فى حياتهم المقبلة » على هذا النحو يفهم جل رجال التعليم «إعداد النشء للمستقبل» ومن الصعب أن تقنعهم بأن المربين حين يتحدثون عن «الإعداد للمستقبل» لا يعنون أكثر من تزويد الأحداث بتلك الصفات والمواهب والعادات التى تعتبر عناصر ضرورية للحياة المقبلة ورأس مال يستثمرونه إذا أدركوا طور الشباب أقول من الصعب أن تقنع جل رجال التعليم بهذه الحقيقة الجوهرية فى التعليم وأن تحملهم على الاعتراف بأنه ليس من واجب المعلم أن يجعل من الطفل رجلا قبل أوانه ولكن الواجب الذى تفرضه عليه مهنته يكاد يقتصر على استغلال تلك الميول الطبيعية والنزعات الفطرية والعمل على إنمائها - فى حدود الطفولة - إنماء يهيىء الطفل لشباب صالح منتج سليم . فانت تعد طفلك للمستقبل إعداداً صالحا محمود العاقبة اذا استطعت أن تختار له من التجارب ما يستثير نشاطه الذاتى ويرهف من ملاحظته ويغذى وجدانه وخياله تغذية صالحة ناجعة أما أن تحمله على استظهار محصولات أمريقا وأنهار أوربا وهو لا يزال يجهل أثر « النيل » فى حياته وحياة من حوله ، أو ترهقه بمعرفة النسبة والتناسب والمكسب والخسارة وما إلى ذلك من أعمال المصارف والشركات وهو لا يكاد يحسن بعد شراء كتاب فى المطالعة أو ابتياع رطل من فاكهة ، أو تكد ذهنه ببيان واف عن المصدر المؤول ومواقع إعرابه وهو عاجز كل العجز عن الابانه عن نفسه فى أخص شئونه الحيوية أما أن تعرض عليه دراسة هذه المسائل وأشباهها فليس من الإعداد للمستقبل فى شىء بل إن شئت فقل إنه إفساد لحاضر الطفل ومستقبله

يقول صاحبي وهو يحاورني : « لكنك نسيت أن جل التلاميذ يجتازون الامتحان في هذه المسائل التي تنعاها على المنهاج بدرجة تدعو إلى الاغتياظ » وهذا حق لاشبهة فيه فالتلاميذ على صغر أسنانهم يسألون في هذه المسائل ويجيبون وينالون عليها درجات يغتبط بها كل محب للامتحان. وهل نقصت نتائج النجاح والشهادة الابتدائية عن ٦٠ أو ٧٠ في المائة كل عام ؟ وهل أتاك نبأ هذه المدارس العجيبة التي تأبى إلا أن تقذف بجميع تلاميذها إلى المدارس الثانوية في كل امتحان أليس هذا عجيباحقا ؟ أليس نظار المدارس ومعلموها يطربون لهذه النتائج ويبتهجون بها ؟ ألم ترتب وزارة المعارف على هذه النتائج أمورا ذات خطر تتصل بأقدار المعلمين وأرزاقهم ؟ بلى . كل هذا صحيح وكله حق فلا يسعني إذن إلا أن أوافق صديقي على قوله بل أزيد عليه ان هؤلاء الاحداث المساكين لو كلفوا الامتحان في المعلقات السبع وفي المقولات العشر وفي نظريات علم الفلك وقواعد المنطق فربما لا يجد كثير منهم صعوبة في اجتياز الامتحان ما دام هذا الأسلوب التعليمي يجري في مدارسنا على النحو الذي رسم له حتى الآن

لا . ياسيدي . ان نتائج الامتحان ونتائج التعليم مسألتان مختلفتان جد الاختلاف وإنا لنخدع أنفسنا ونجني على أطفالنا اذا خلطنا إحداهما بالأخرى فان بينهما فرق ما بين السماء والأرض وإدراكنا لهذا الفرق هو إدراك للتعليم كما هو الآن وما يجب أن يكون عليه فالغاية فيهما مختلفة والوسائل اليهما مختلفة كذلك ومن الواجب أن نسلم بأن الأسلوب الذي يجري عليه التعليم في مدارسنا الابتدائية هو أشبه بأسلوب امتحاني منه بأسلوب تعليمي فهو يرمي في مجموعه الى غاية محدودة واضحة هي إقدار التلاميذ على اجتياز الامتحان فحسب وهو من أجل ذلك لا يقتضي من ناحية المعلم أكثر من إعادة وتكرار ولا يتطلب من ناحية التلميذ فوق

انتباه واستظهار أما تربية الملكات واستثارة النشاط وإنماء الميول الصالحة وتهذيب الخيال والوجدان فلا يعنى بهـا ولا يلتفت اليها فان تحقق منها شيء — وقلما يحدث — فهو كما يقول المناطقة — ليس مقصودا أولا وبالذات وإنما يأتى عرضا وعلى « الهامش »

ثم يعود صاحبى فيسأل : « ماذا يعلم الأطفال فى أوربا ؟ » وأنا من فورى أؤكد له أن التعليم فى الممالك الراقية لا يقدر بالكمية كما يقدر فى مدارسنا ولقد يدهشك أن تعلم أن الطفل الانجليزى وهو ربيب أمة لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها — لا يكاد يعرف شيئا مما يجرى وراء بحر « المانش » أو على الشاطىء الآخر من المحيط الأطلسى فهو لا يستطيع — اذا سئل كما يسأل الطفل عندنا — أن يعدد الانفاق فى أوربا ولا محصولات آسيا ولكنه لا يكاد يخطىء شيئا مما يجرى فى بيئته الخاصة

ولكن قد يدهشك أكثر من هذا أن تعلم أن هذا الطفل نفسه لا يرى شيئا غريبا حتى ينزع إلى معرفته واستكناه حقيقته ولا يخطر بباله فكرة إلا أخرجها فى صورة محسوسة ظاهرة ثم هو اذا بدأ عملا أبى إلا أن يتم مهما قام فى سبيله من عقبات فهو مخلوق يقظ نشيط يشعر بأن له وجودا مستقلا وان فيه قوة ذاتية يستطيع أن يسيطر بها على الكائنات

ومثل هذا يقال عن الطفل فى المانيا وأمريكا وغيرهما من الممالك التى شادت مجدها على كواهل بنيها حيث تستغل وتستثمر مواهب الطفولة الى أقصى حدودها فتستحيل فى النهاية الى شباب قوى ثم الى رجولة كاملة

لقد أطلت فى الحديث عن المنهاج المقرر وما يحمله من مسائل لا تسيغها عقول الاحداث غير أنى مع هذا مؤمن كل الايمان بأن لأسلوب المعلم أكبر الأثر فى علاج ما يحتويه هذا المنهج من سيئات . وعندى ان مشكلة التعليم الابتدائى وغيره من مراحل الطفولة تكاد تنحصر فى أسلوب

الدراسة وان ما يلقاه الناشىء من صعوبات يرجع أكثره الى الطريقة التى يجرى عليها المدرس فى درسه وعلى هذا أرى ان مسألة التعليم الابتدائى لا يمكن أن تعالج بين أربعة جدران فى هذا القصر الفخم المشيد فى شارع الفلكى بل علاجها الصحيح الناجع إنما يكون فى فصول الدراسة وبين أيدى التلاميذ

ولكن خبرنى كيف نستطيع أن نحمل المعلم على تغيير طريقته وتعديل أسلوبه إذا كنا نضطره إلى انجاح نسبة معينة من التلاميذ وننذره بالويل والثبور وعظائم الأمور — كما تقول القصص القديمة — إذا نقص عنها أو رضى بما هو دونها ؟ إنى لا أفشى سرا ولا أقول جديدا إذا ذكرت أن بعض معلمينا الذين يدركون التربية على حقيقتها ولهم تبصر بأساليبها وفيهم حذق بالافتنان فى طرقها قد أصبحوا تحت هذا النظام القائم يعملون للامتحان ولا يقصدون إلى سواه سمعت مرة أحد نظار المدارس الابتدائية التى اشتهرت فى البيئات التعليمية بنتائجها الفائقة كل عام يفخر فى جمع من رفاقه بقوله : « لو دخل مدرستى حمار بليد لاخرجته بشهادة » وهو صادق فى هذا كل الصدق لانه قد عرف « سر المهنة » ولكنى أؤكد له ولكل من يعنيهم الأمر أن هذا الحمار البليد سيخرج من المدرسة كما دخلها ولكن « تزينه شهادة فى عنقه » .

فانت ترى مرة أخرى أن الامتحان على نظامه المألوف فى مصر هو موطن الداء رأس البلاء لا فى التعليم الابتدائى وحده ولكن فى نظامنا التعليمى بأجمعه وأقسم لو حاولت أن تنتزع من معاجم اللغة كلمة تجمع عيوب التعليم كلها فى قرن واحد وتنتظم مساوئه جميعها فى سلك واحد لما وسعك أن تجد خيرا أو بالاحرى شرا من كلمة « امتحان »

زكى المهندس